

تدريس العلوم بغير العربية والفرص الضائعة

الدكتور قدور سلاط جامعة تبسة

ملخص

بعض المنقّفين لا يرون في اللغة العربية القدرة بأن تكون لغة العلوم والتكنولوجيا، بل يعدّون التدريس باللغة العربية مجازفة ومخاطرة قد تسبب الانغلاق والتخلف

ونسى هؤلاء أو تناسوا أن اللغة العربية كانت لغة العلم والحضارة، لا يكاد فن من الفنون يكتب إلا بها، ولا يتعلم إلا بواسطتها، ولا ينشر إلا تحت لوائها

هذه النظرة الدونية للغة العربية من طرف أبنائها خاصة جعلها تبتعد يوما بعد يوم عن مواكبة التطور العلمي، وضياع الفرص الكثيرة لاستدراك هذا التأخر

Resume:

Il y a parmi les intellectuels quelques uns qui voient en la langue arabe une langue incapable d'être celle des sciences et de la technologie, ils pensent également qu'adopter l'Arabe en tant que langue d'enseignement n'est qu'une aventure bien risquée dont les repercussions seraient l'isolement et la regres.

Ceux qui pensent ainsi oublient ou font semblant d'oublier, que la langue arabe, a été pendant des siècles, la seule langue des sciences et de la civilisation, que tous les domaines de savoirs étaient rédigés, enseignés, étudiés et bien sûr publiés en langue arabe.

Cette attitude, surtout lorsqu'elle émane de personnes arabophones, lui cause un certain retard par rapport aux développements scientifiques, ce qui est à l'origine de la perte de nombreuses opportunités de recouvrir la vraie place de cette langue.

تمهيد

دفعني إلى كتابة هذا المقال كون بعض المثقفين لا يرون في اللغة العربية القدرة بأن تكون لغة العلوم والتكنولوجيا، بل يعدون التدريس باللغة العربية مجازفة ومخاطرة قد تسبب الانغلاق والتخلف وأن ذلك سيحول بيننا وبين التقدم ومسايرة التطور

وربما تجرأ بعضهم في عصر العولمة فجرّدوا العربية من أي فضيلة أو مكرمة، وأصقوا بها كل نقيصة و مذمة، غافلين أو متغافلين ما تتمتع به العربية من مزايا وخصائص، ونسي هؤلاء أو تناسوا أن اللغة العربية كانت لغة العلم والحضارة، لا يكاد فن من الفنون يكتب إلا بها، ولا يتعلم إلا بواسطتها، ولا ينشر إلا تحت لوائها

وأثيرى أناس من دعاة الاستعمار على مدى عقود طويلة فحاضروا وكتبوا في اتهام اللغة العربية بالقصور والجمود، وقالوا بعجزها عن مجاراة العلوم الحديثة ومسايرة ركب الحضارة.. وأنكى من ذلك أن سار في ركاب هؤلاء نفر ضالّ من أبناء هذه الأمة فشايعوهم، عن جهالة أو عن سوء قصد، في الانتقاص من شأن العربية والقول بصعوبتها وعسر قواعدها وأنها مؤنّية إلى التخلف.

ونادى آخرون من الأجانب بترك الفصيحة وإحلال اللهجات العامية محلّها مدّعين أن العامية هي اللغة الحية المشهورة بين الناس وأن الفصيحة لغة ميّنة مهجورة، وأن حروفها لا تكفي لمتطلبات العصر.¹

ودعا أبواق الاستعمار أيضاً وبعض من شايعهم إلى استعمال الحرف اللاتيني في كتابة اللغة العربية بدلاً من الحرف العربي، أسوة بما فعلته تركيا في عشرينيات القرن الماضي من كتابة لغتها بالحرف اللاتيني، بحجة أن استعمال الحرف اللاتيني ييسر قراءة «النصّ العربي»، ويغني عن علامات الشكل، ويسهل تنضيد حروف الطباعة.

وطالب أناس من العرب بإبطال الشكل في الكتابة والاستعاضة عن الفتحة والضمة والكسرة بالآلف والواو والياء، بدعوى أن ذلك ييسر القراءة الصحيحة ويغني عن اللجوء إلى الحروف اللاتينية.²

¹ - أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير - الاستشراق - الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه عبد الرحمن حبنكة الميداني: دار القلم، 2000، ط8، ص 299

² - انظر اللغة العربية ومكانتها في الثقافة العربية الإسلامية. الدكتور جميل عيسى الملائكة، صحيفة 26 سبتمبر، العدد 1084

ونسى هؤلاء أو تناسوا أن اللغة العربية كانت لغة العلم والحضارة، لا يكاد فن من الفنون يكتب إلا بها، ولا يتعلم إلا بواسطتها، ولا ينشر إلا تحت لوائها، فقد أصبحت هي اللغة العالمية الأولى في مختلف العلوم والفنون في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري، وقد نشأت مراكز لدراسة اللغة العربية في باريس وأكسفورد وروما، وقد أصبحت هذه اللغة لغة الثقافة والتجارة ووسيلة الاتصالات الدولية¹.

وسبب ذلك راجع إما إلى انبهار هؤلاء بما حققته الإنجليزية من تقدم وانتشار وقدرة على التعبير عن العلوم والفنون والشؤون الحضارية. وإما من إحباط بما تردت إليه العربية - بل أصحابها - من تأخر وانحسار وعجز عن التعبير عن متطلبات الحضارة الحديثة في العلم والفن وما إليهما.

كل ما سبق ذكره يدفعنا إلى طرح جملة من التساؤلات أزعج أنها ابرز إشكالات الموضوع:

هل اللغة العربية فعلا قاصرة عن مواكبة العلوم وعاجزة أن تكون لغة علم وتكنولوجيا؟

هل المشكلة في اللغة العربية أم في الناطقين بها؟

هل هناك سبب معقول متعلق باللغات الأجنبية يجعلها تسود وتصبح لغة العلم، - على خلاف اللغة العربية -، أم أن ذلك وهم في أذهان البعض وانبهار عند البعض الآخر يجعلنا نضيع الفرص ونبتعد يوما بعد يوم عن التقدم والتطور العلمي؟

كم من الوقت نحتاج لإستدراك مافاتنا، وما هي الفرص التي تضيع، بسبب الحواجز الموضوعية أحيانا والوهمية في غالبها؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا المقال.

اللغة العربية و الغزو الثقافي:

إن الأمة العربية مرت بفترات صعبة اكتسح التتار أقطارهم فأنزلوا فيها الخراب والدمار، ضف إلى ذلك عصور الضعف والانحطاط وما خلفته من ترد،

غير أن العربية لم يصبها من كل ذلك ضعف أو وهن، بل إنها قاومت وثبتت، فقد حفظها أنها لغة القرآن الكريم والدين الإسلامي القويم والسنة

¹ - عالمية اللغة العربية ومكانتها بين لغات العالم، عبد الكريم خليفة - دمشق: مجمع اللغة العربية، المؤتمر السنوي الثاني " اللغة العربية في مواجهة المخاطر " 20-23 أكتوبر 2003

النبوية الشريفة، وحفظها جهود العلماء بحفظ متونها وتقعيد قواعدها وتحري مفرداتها وتراكيبها وأساليبها وتأليف التصانيف الضخمة التي تجعلها بمنأى أن تطالها يد الطامعين من أعداء هذه الأمة

والحصول من كل ذلك هذا القدر الهائل من المدونات والمخطوطات العربية، التي تزخر بها مكتبات المدن والحوضر في جميع البلاد العربية والإسلامية، وفي الكثير من أقطار العالم، ولم تكن الحقبة التي تلت أيام الحكم العثماني بأحسن من سابقتها، فقد تفتن أعداء الأمة العربية والإسلامية من المستعمرين في السعي للنيل من شخصية هذه الأمة، بمحاولات طمس اللغة العربية، لمعرفةهم بمنزلتها ومكانتها عند العرب والمسلمين، فبدلوا الجهود الجبارة لإحلال لغاتهم محل اللغة العربية في بعض أجزاء الوطن العربي، ومنعوا التدريس باللغة العربية في مدارسها، توخياً لترسيخ سيطرتهم على هذه البلاد بقتل الشعور القومي، وتفتيت شمل الأمة العربية والإسلامية وقطع الأواصر بين المسلمين وقرآنهم وبين الأمة وتراثها.

إن مما يؤسف له أن نفراً من الذين يبتعدون عن هذه البلاد ردىاً من الزمن للدراسة وهم مازالوا في غضارة الشباب، تبهرهم حضارة البلاد التي يزورونها ويتعلمون لغاتها ويأخذون من علومها، في حين لم تكن قد تهيأت لهم قبل ذلك فرصة اتقان العربية وممارستها في العمل العلمي المتخصص، وإذا بهم يعتقدون بقصور اللغة العربية عن مجارة العلوم وما القصور إلا فيهم. فما أحوج أمثال هؤلاء إلى صقل معرفتهم بالعربية في دورات وحلقات دراسية مركزة لإعادة ثقافتهم بها.

وفي الناحية الأخرى مازال أناس يتمسكون، بحسن نية أو بسوء نية، ببعض الدعوات الضالة التي كان يروجها المستعمر للنيل من العربية، وإن لم يجاهروا بها. وهم من ثم يقفون بشتى الوسائل، المعلنه وغير المعلنه، حجر عثرة في سبيل كل محاولات التعريب والعناية بالعربية.

فنحن أمام غزو ثقافي وبيل وهجمة استعمارية شرسة يشنها اعداؤنا على كل ما هو عربي وكل ما هو إسلامي. وليس من سلاح أمضى من تفتيت عرى اللغة العربية لغة القرآن وجامعة كلمة العرب والمسلمين وموحدة فكرهم وثقافتهم. فما أحرانا باليقظة وتوحيد الكلمة ورص الصفوف لدحر هذه الحملة العدوانية الشريرة ودرء هذا الخطر الجاثم¹

¹ - للمزيد أنظر: أحمد صدقي الدجاني، الثقافة العربية والإسلامية وتحديات العولمة مجلة الكلمة، بيروت، السنة الخامسة، العدد 18 1998م، ص 143.

نظرة في تاريخ اللغة العربية والعلوم:

كانت اللغة العربية في العصر الجاهلي لسان الشعر والإبداع الفني والمتجسد في المعلقة العشر وشعر الصعاليك ومختارات الشعراء والنقاد. وأصبح هذا الشعر مصدرا أساسيا لكل الأشعار العربية بعموده الفني المطبوع وعروضه الخليلي الموهوب، وتميزت اللغة العربية في حضن هذا الشعر بالفصاحة والبلاغة وروعة البيان والبديع وجودة النظم والتركيب.

ولما انتشرت العقيدة الربانية الإسلامية وتوسعت البلاد الإسلامية شرقا وغربا شمالا وجنوبا كانت اللغة العربية أداة للتواصل والتفاهم مع الآخر، وقد اقترن القرآن بهذه اللغة البيانية السامية، وأضحت مظهرا من مظاهر الإعجاز القرآني عند عبد القاهر الجرجاني و أبي بكر الباقلاني وآخرين كثيرين ؛ لأن هذه اللغة ترجمت لنا البلاغة الربانية في أعلى مستوياتها مجازا وفصاحة وتعبيرا ونظما ومقصدية، فعجز المبدعون والمتقنون العرب عن محاكاتها والسير على منوالها. ومع العصر الأموي، عربت الدواوين خاصة في عهد عبد الملك بن مروان، وبتجمع المعارف والعلوم في مصنفات وكتب ومؤلفات وستكتب باللغة العربية باعتبارها لغة الإسلام والحضارة العربية الإسلامية.

هذا، وستعرف اللغة العربية أوجها الحضاري والإشعاعي مع الدولة العباسية التي ستمتد في رقعة شاسعة ولأسيما مع عهد السلاطين الثلاثة: أبي جعفر المنصور والمأمون وهارون الرشيد. وستحظى اللغة العربية بأهمية كبرى باعتبارها لغة الترجمة لفكر اللغات الأجنبية كاليونانية والفارسية والهندية والرومانية كما يتمظهر ذلك واضحا في بيت الحكمة الذي أسسه الخليفة المأمون لنقل الإرث الثقافي اليوناني إلى اللغة العربية، وفي هذه الفترة انتشرت المعارف والعلوم وازدهر الأدب العربي، وانفتحت اللغة العربية على قواميس ولغات وألسنة أخرى من باب التلاقح والاحتكاك الحضاري والثقافة، وصارت اللغة العربية لغة العلم والرياضيات والفلك والهندسة والمنطق والفلسفة والتصوف والفلاحة والصناعة والاقتصاد، وانتعشت بفضل غيرة العلماء عليها وانكبهم على البحث العلمي والاختراع والتجريب والتحصيل المعرفي والتصنيف في شتى المجالات التي اعترف المستشرقون الغربيون بريادة العرب فيها حتى قال المستشرق سيديو عنهم: "كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة في القرون الوسطى وقد حرروا بربرية أوربا وسار العرب إلى منافع فلسفة اليونان ولم يبقوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبوابا جديدة في مختلف العلوم وإذا ما بحثنا في الوجه الذي ايقظ الحضارة في المشرق وجدنا حب العرب للعلم وشوقهم إلى تعجيل رقيه بأنفسهم، ولعل تشوق العرب للإطلاع على

علوم وثقافات الأمم الأخرى واهتمامهم البالغ بالعلم دفعهم إلى الإبقاء على المؤسسات العلمية التي كانت لأهل الذمة في البلاد المفتوحة.¹

بيد أن انحراف المسلمين عن تعاليم الإسلام وهدى النبي الكريم جعلهم أدلة بعد أن كانوا أسباده، فسلط الله عليهم كثيرا من الغزاة والأعداء يذيقونهم أنواعا شتى من الهون والسوء والويلات كالاستبداد والاستعباد والاستعمار والقتل والذبح والتجويع مع المغول والدول الغربية والحليفة اللعينة إسرائيل. فالعالم الإسلامي إلى هاوية الانحطاط والتخلف عن ركب التقدم التتموي الذي سبق إليه الأوروبيون والأمريكيون بفضل اهتمامهم بالعلم وتشجيع العلماء، وكان من نتائج هذا التخلف تراجع وضعية اللغة العربية في العالم العربي والإسلامي وتشكيك الناس في منظومتها اللسانية والتداولية؛ لأنها لم تعد بالنسبة إليهم لغة الحضارة والعلم والتكنولوجيا، بل لغة الماضي والتراث والبداءة والأسلاف، ومن ثم انتقل المثقفون العرب إلى سجل جدلي كبير حول موضوع اللغة الفصحى وقضية الأصالة والمعاصرة وكيفية التعامل مع الغرب منذ عصر النهضة إلى يومنا هذا، وكان السؤال الجوهرى المطروح: لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون؟ وكانت اللغة حاضرة في هذا النقاش والسجل، فهناك من يدعو إلى تطوير اللغة العربية وتهذيبها وذلك بالرجوع إلى لغة الماضي، وهناك من يدعو إلى استخدام العاميات بدلا من الفصحى التراثية، وهناك من يرفض استخدام اللغة العربية وينادي بضرورة استعمال اللغات الأجنبية في دوايب الحكم والإدارة والاقتصاد والتعليم من أجل التقدم وتحقيق التنمية والازدهار، كدعوة كمال أتاتورك في تركيا ورجال التقنية ودعاة التغريب الليبرالي من العرب والمسلمين.

ومع القرن العشرين وازدهار الثورة الصناعية و تطور الاكتشافات العلمية والتقنية، أضحت اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الإنجليزية ذات قيمة كبرى في التواصل ونقل التكنولوجيا. واقتترنت هذه اللغات بتطور الاقتصاد الرأسمالي والمخترعات الحديثة وتقنيات التواصل الرقمي والفضائي والإعلامي، وترتب عن هذا أن غدت أداة للتدريس في الجامعات والتكوين والتراسل والدخول في العولمة واستيراد الأسلحة ونقل نتائج الطب ونظريات العلوم والآداب. وهمشت اللغات الوطنية للشعوب المغلوبة على أمرها كالدول العربية والإفريقية والآسيوية. وكل من أراد أن يتحضر أو يريد الحصول على الشغل فلا بد أن يتمكن من اللغات الأجنبية لمسايرة متطلبات الانفتاح وجدلية

1- الملل والنحل: الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر مصطفى الياس الحلي، مصر 1961م.

التواصل وخصوصيات العالم الجديد الذي يسبح في قرية صغيرة وعالم جديد ذي القطب الواحد.

ألا يعلم هؤلاء أن العربية من اللغات القلائل الثابتة الأصول المتينة البنیان الممتدة العمر، يفهم الآخر فيها ما كتب الأول، وثمر نصوصها عبر العصور والقرون، ويتواصل أبنائها عبر الزمان والمكان، فما كتبه امرؤ القيس، والنابغة، وعنتر في أقدم عصورها، حاضر ماثل اليوم يتغنى به الشعراء والكتاب، بل يتعلمه التلاميذ والطلاب، ويسير في الناس مسير الأمثال. على حين لا يفهم الإنجليزي اليوم ما كتبه شكسبير وأمثاله قبل بضع مئات من السنين

يقول الدكتور. حسين نصار¹: إن أكبر تحدٍّ واجهته العربية كان عندما أخرجها الإسلام من جاهلية غنية كل الغنى في الإبداع الأدبي فقيرة كل الفقر إلى حد الإملاق في الإنتاج العلمي، ثم ألقى بها في القرنين الثاني والثالث الهجريين في بحر زاهر من الحضارات والعلوم والفلسفات والفنون، وكل صنوف المعرفة التي ابتكرتها الأمم المتاخمة للجزيرة العربية كالفرس والروم والسريان والمصريين، والأمم البعيدة عنها كاليهود والصينيين والأتراك والبربر وشعوب أسبانية، ولكن العربية تثبت لهذا التحدي بفضل ما بثه الإسلام في العرب من رغبة في المعرفة وسعي في طلبها، وطموح وعزم وتخطيط وتنفيذ وتعاون مع غير العرب من أبناء الشعوب العارفة باللغات الأجنبية واللغة العربية، فلم يمض إلا وقت غير طويل حتى نقلت العربية كل ما وجدت عند هذه الأمم إليها، فاستطاع أبنائها بعد أن تمثلوها فهما، ولم يمض كبير وقت حتى شاركوا في الإنتاج والابتكار. فصار ما كتبه هؤلاء المفكرون والعلماء منذ القرن الثالث نبراساً استضاءت به شعوب العالم القديم. لا يستطيع أن ينكر ذلك إلا منكر لعقله، منكر لشمس النهار الصحو، منكر لتاريخ الإنسان وتطوره الحضاري.¹

اللغة تتطور بتطور المجتمع

إن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لقوانين المجتمع تقوى بقوته وتضعف بضعفه، وتحيا وتتطور وتمرض وقد تموت وتتلشى كما هو شأن الفرد والمجتمع.

والحضارة لا تنعكس في شيء مثلما تنعكس في اللغة الإنسانية، وذلك إلى الحد الذي دفع بعض العلماء إلى أن يقولوا: إن كل قصور لغوي في

¹ - من كلمته التي ألقاها بمناسبة حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية. مجلة تراثيات، العدد الخامس ذو الحجة 1425 - يناير 2005.

مجتمع من المجتمعات هو دليل قاطع على مدى تخلف هذا المجتمع في ركب الحضارة¹

فاللغة والحضارة يتناسبان طردأ، وهذا يعني أن اللغة ظاهرة اجتماعية تعيش مع الإنسان جنباً إلى جنب. وبهذا المعنى جاء قولهم: "لسانك أنت"، وعبر عن ذلك شاعرنا العربي القديم بقوله:

لسانُ الفتى نصفٌ، ونصفٌ فؤادهُ فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدم

والمعنى العميق لهذا الكلام أن لسان الفتى هو كل الفتى؛ لأن اللسان لا ينزع من فراغ، وإنما يستمد مادته من العقل المعبر عنه في البيت بالفؤاد. فاللغة لا تعيش وحدها بحال، بل لا بد لها من مجتمع، ولا حياة لمجتمع بدون لغة بينها وبين أصحابها رباط قوي دائم وتفاعل مستمر. وبقدر ما يكون هذا التفاعل كيفاً وكماً وقوة وضعفاً يكون حال القليلين معاً.²

إن الأمم الحرة هي التي تعتني بلغتها وتحافظ عليها وتسهر على تطويرها لتكون دائماً في الريادة ولا تتخلف مهما تغير الزمن وتطورت العلوم

إن اللغة الإنجليزية لم تسد في كليات الطب والهندسة والعلوم لسبب معقول متعلق بها كلغة ولا يوجد هذا السبب في غيرها فالكثير يزعم أن اللغة العربية تعوزها المصطلحات العلمية وهذا وهم أو هو عجز يتستر بهذا الوهم المصنوع فالمصطلحات العلمية لم تكن مما تفردت به الإنجليزية أو الفرنسية وإنما هي ألفاظ نحتت نحتاً من اليونانية واللاتينية وفي مقدورنا أن نأخذها كما أخذوها بعد أن نسقلها سقل التعريب فتضاف إلى اللغة القومية.³

لك التجربة الناجحة التي خاضتها ولا تزال تخوضها الجامعات السورية بتعريب التعليم فيها على اختلاف الاختصاصات إذ يعلم الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء وغيرها من العلوم والفنون بالعربية، ويتلقى الطلبة علومهم بلغتهم الأم، فلا ينشغلون عن تحصيل العلم بفك رموز اللغة، ويوفرون مشقة فهم اللغة لئبذلوها في فهم المادة العلمية وإدراكها إدراكاً حقيقياً يؤهلهم للإبداع فيها والتجديد والابتكار في حقولها المختلفة.⁴

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات:

¹ - انظر اللغة في الثقافة والمجتمع محمود ابو زيد، دار الكتاب، ص 150
² - القول القوام فيما يثار حول اللغة العربية من كلام، للدكتور كمال بشر. الأهرام 2005/12/6 م.
³ - انظر اللغة والدين والتقاليد في حياة الاستعمار زكي مبارك ط 1 1936 ص 15
⁴ - أحمد الجندى: المجتمع العلمي العربي - مجلة المعرفة، السنة الرابعة، العدد 42، ص 39-44.

"هذا العلم الذي يسخر السماوات والأرض لهذا الإنسان الضعيف، ويذل القطعان الملايين للراعي الفرد، سيبقى غريباً عنا ما لم ننقله إلى ملكنا بالتعريب، ونعممه في شعبنا بالنشر، ولا يمكن أن يصلنا به أو يدنينا منه كثرة المدارس ولا وفرة الطلاب، فإن من المحال أن ننقل الأمة كلها إلى العلم عن طريق المدرسة، ولكن من الممكن أن ننقل العلم كله إلى الأمة عن طريق الترجمة¹

يقول محمد حسان الطيان (سوري وأستاذ مشارك في الجامعة العربية المفتوحة والمنسق العام لمقررات اللغة العربية فيها بالكويت): "تجربة متواضعة ولكنها غنية ثرية خضتها بنفسي على امتداد عشرين عاماً في مركز الدراسات والبحوث العلمية بدمشق؛ إذ سنى الله لي أن أنضم إلى فريق عمل متكامل ضم أناساً من اختصاصات شتى في العربية والرياضيات والحاسوب والإلكترونيات. كان من أولى مهامه معالجة اللغة العربية بالحاسوب، وقد أتى العمل أكله على خير وجه بحمد الله؛ إذ أنجزنا عدة مشاريع علمية في هذا المجال، أهمها: النظام الصرفي العربي بالحاسوب، ونظام تحويل الكلام المكتوب إلى مقروء، وقواعد تعليم العربية بالحاسوب، وهي ترمي إلى أهداف عظيمة وغايات بعيدة، على رأسها الترجمة الآلية من العربية وإليها، واكتشاف الأخطاء اللغوية في النصوص وتصحيحها، وتعرف الكلام وتركيبه، والقراءة الآلية للنصوص المكتوبة، والكتابة الآلية للنصوص المنطوقة، والتحاور مع الآلة باللغة الطبيعية، والفهرسة الآلية للنصوص، وضغط النصوص واسترجاعها، وشكل النصوص غير المشكولة أو المشكولة جزئياً... وغير ذلك²

إن تراجع اللغة العربية عن ركب الحضارة يقع وزره على الناطقين بها خاصة المتقنين والخبراء ورجال السياسة فلو أخذوا بأسباب التقدم وسلكوا مسلك الجد والحزم وعرفوا قيمة اللغة التي يتكلمون بها وعرفوا ماضيها المجيد كونها سابقة إلى لغة العلم والمعرفة، لأقبلوا على لغتهم وجعلوها لغة التعليم وأمدوها بكل طارف وتلبد وتسامت همتهن إلى جعلها لغة رائدة لا تابعة كما هو الحال اليوم.

¹ - في سبيل العربية، د. محمد هيثم الخياط ص 184.

² - د. محمد حسان الطيان "أسلوب معالجة اللغة العربية في المعلوماتية (الكلمة-الجملة)" نشر في كتاب "استخدام اللغة العربية في المعلوماتية"، من منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بترنس 1996م.

هل تصلح اللغة العربية لأن تكون أداة للعلم ولغة للتدريس؟

بعض المنقّفين من اعداء العربية وأتباعهم من المستعربين يرون أن استخدام اللغة العربية في تدريس العلوم والتكنولوجيا له مخاطر هائلة قد تتسبب في الانغلاق والتخلف، وأن ذلك سيحول دون تقدمنا وإسهامنا في مسيرة التطور والتقدم العالمي. وهذا الحكم صحيح إذا بقينا مكتوفي الأيدي عاجزين عن الإبداع والإنتاج الصناعي والخدماتي والتقني والفني والأدبي، عالة على الغرب و متكلين على الآخرين نستورد منهم نظرياتهم ومنجزاتهم المعرفية النظرية والتطبيقية، بطبيعة الحال ستكون اللغة العربية دائما في مؤخرة اللغات العالمية تعتمد على الترجمة والاشتقاق والتوليد والتعريب السطحي. وفي الحقيقة يرتبط تقدم اللغة دائما بتقدم فكر الأمة وإبداعها وإنتاجها. وعندما نطالب بتدريس العلوم باللغة العربية لا يعني هذا عدم الانفتاح على اللغات الأخرى والانطواء على الذات، فلغتنا قابلة للحوار والاختلاف والمناقشة منذ القديم أثناء احتكاكها مع الشعوب المجاورة، ولكن أن نفرط في لغتنا ونرحج كفة لغات أخرى كاللغات الأجنبية فهذا ما لا نرضاه للغتنا ؛ التي هي أس الحضارة والثقافة، و لسان الحداثة والتقدم

إن اللغة العربية لها ماض مجيد في الحياة العلمية والطبية ومن السهل رجوعها الى مجدها القديم فنحن لا تعجزنا الأصول وإنما تعجزنا العزائم القوية والهمم العالية وليس من الكثير أن نشقى عشر سنين في سبيل تجربة شريفة نحفظ بها ذكرانا نقية بيضاء على وجه التاريخ

فاللغة العربية صالحة لأن تكون وعاء حاملا للعلوم والتكنولوجيا، والدليل على ذلك أنها بفخامة ألفاظها ونصاعة بيانها وجزالة كلماتها وصرامة تراكيبها كانت لغة العلم والفنون والآداب في العصر العباسي يقبل عليها الأجانب لتعلمها ومدارسها والبحث من خلالها، كما كانت اللغة المفضلة لكثير من الشعوب والأجناس كفارس والأندلس ودول المغرب الإسلامي. ولقد انتقلت كثير من المؤلفات والمصنفات إلى أوربا باللغة العربية، و تم نقل محتوياتها وتمثل مضامينها عن طريق الترجمة كما فعل كثير من العلماء والمستشرقين الغربيين مع ابن رشد وابن سينا والخوارزمي وابن النفيس....

إن اللغة مرتبطة بمستوى الفكر، لأن الفكر هو الذي يصنع اللغة في نفس الوقت تصنعه اللغة، كما أن الفكر جسد اللغة واللغة هي ثوب الفكر كما ينص على ذلك موريس ميرلوبونتي Maurice Merleau-Ponty . فإذا كانت الأمة متقدمة على صعيد العلوم والتكنولوجيا والفنون والآداب، حتما ستتقدم اللغة بدورها مادامت هي حاملة للفكر وأداة للتواصل والتبليغ، والدليل على

ذلك أيضا اللغة اليابانية التي أصبحت لغة متقدمة إلى جانب عملتها الثمينة بفضل تقدم صناعاتها ذات التقنية العالية وسيطرتها على معظم أسواق العالم حتى أصبحت منتجاتها تهدد الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية الغربية حتى في عقر دارها.¹

ويلاحظ أن ثمة شعوبا تعتر كثيرا بلغتها الوطنية والقومية، ولا تريد أن تفرط فيها أو تبتعد عنها قيد أنملة، فجعلتها لغة التدريس والتخاطب والتداول اليومي في كل الأمكنة والمنازل والمؤسسات، تدرس بها العلوم والتقنيات، تتعامل بها المقاولات والشركات ولو كانت هذه اللغات غير عملية على مستوى الكتابة والتواصل الخارجي كاللغة الصينية واليابانية واللغة العبرية بالنسبة لإسرائيل التي اندثرت فتم إحيائها من جديد.

وإذا عرفنا أن كثيرا من الدول الأوروبية مثل السويد، والنرويج، وفنلندا، وألمانيا، والنمسا تدرس الطب بلغاتها وعلى مستوى عال من الأداء في الوقت الذي نجد فيه أن البلاد العربية والتي تمتلك لغة تتميز بالسهولة والمرونة وهي أنسب للإبداع العلمي من اللغات الأخرى، خاصة إذا اجتهدنا في إيجاد حلول مناسبة لقضية الترميز والمصطلحات والمفاهيم العلمية والتقنية والمنطقية ودعمناها بالبحث العلمي والإنتاج الصناعي والإبداع الفني والأدبي والثقافي، نجد هذه الشعوب وعدد سكانها يزيد عن 300 مليون نسمة وفيها ما يقارب 100 كلية طب، ومئات كليات الهندسة كلها تدرس بلغات أجنبية هي الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ما عدا بعض الكليات هنا نطرح علامة استفهام؟!

إن اللغة التي اختارها الله تعالى لتكون لغة القرآن الكريم، ولسان رسالة الإسلام خاتم الأديان، الصالح لكل زمان ولكل مكان، لا يمكن أن توصف بالعجز أو القصور إذ إن المفروض فيها وهي تصاحب رحلة الإسلام عبر كل زمان وكل مكان أن تستجيب لكل جديد يطرق أبواب الحياة، وتستوعب كل متغير يصيب المجتمعات، ويحل ما تواجهه من مشكلات، فلا يعقل أن توصف بالعجز، ولا يعقل أن يختار الله تعالى لغة قاصرة ضعيفة، وإذا كان هناك من عيب فهو فينا نحن، وليس في اللغة، فلنعد إلى أنفسنا لنرى ماذا فعلنا؟ وماذا ينبغي أن نفعل؟ وكيف نفعل؟ (هنا ينبغي الإشارة إلى التجربة السورية الرائدة)

1- مقال اللغة العربية وتدرّس العلوم، الدكتور جميل حمداوي، موقع جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات (عتيدة)

وهكذا يتبين لنا أن اللغة العربية ليست ضيقة ولا عاجزة عن المواكبة لنتائج العلم، بل هي صالحة للتدريس العلمي والتقني بسبب اتساع طاقتها الاستيعابية المعجمية بالمقارنة مع اللغات الأجنبية. ومن المزايا الإيجابية للغة العربية أنها تستفيد من ظاهرة الإعراب والتوليد والاشتقاق بكل أنواعه و من ظاهرة التعريب والتعجيم، وكل هذا يساعدها على الانفتاح والاستفادة من كل لغات العالم.

ان العربية لا ترقى اليها اي لغة في ثرائها وكثرة مفرداتها المترادفة فهي تحتل المرتبة الاولى بلا منازع بين اللغات الاشتقاقية التي تمثل ارقى مجموعة لغوية في عالم اليوم، فبينما نجد عدد كلمات اللغة الفرنسية حوالي 25 الف، وعدد كلمات الانجليزية حوالي 100 الف نجد عدد مواد العربية الفصحى نحو من 400 الف مادة. ويضم لسان العرب 80 الف مادة لا كلمة. ويشير الخليل بن احمد إلى ان عدد ابنية كلام العرب يبلغ 12 مليون و305 الف و412 كلمة. وفيها ثراء في الاسماء المضاعفة، فهناك 170 أسماء للماء و70 أسماء للمطر. وللمادة الواحدة في العربية مصدر للدلالة على المعنى مجرداً من الزمن ولها صيغ تدل على الفاعل والمفعول به، والزمان، والمكان، والتفضيل، والتعجب والتمييز والتصغير وهكذا، كل ذلك يجعلها أكثر ثلابة لحاجة المتكلمين. وأسهل في التطور ومواكبة كل مستجد في دنيا الناس¹ ويزيدها شرفاً أن الله حمل القرآن المكتوب بالبيان العربي ولغته الرائعة كثيراً من الحقائق العلمية كالتي تتعلق بالأجنة والفلك والطبيعة... فكيف يعقل اليوم القول بأن لغتنا العربية غير صالحة أو غير قادرة على استيعاب المستجدات الاقتصادية ومسايرة النظريات العلمية والتقنية والتعبير عنها فهما وتفسيراً وتطبيقاً؟!.

الفرص الضائعة

— الواقع أن التدريس في البلاد العربية بلغات أجنبية هو هزيمة نفسية أولاً وقبل كل شيء يولد عند أجيالنا الإحساس بالضعف تجاه اللغات الأخرى، والقابلية للغزو الثقافي، على حساب اللغة الأم والثقافة الأصيلة، فينبغي أن ننظر للغتنا كما يقول ابن جني: على أنها هي الوطن، وهي الأصل، وهي نتيجة التفكير، وهي ثمرة العقل، وهي تستخدم للتفاهم والتعبير عن المشاعر والأفكار²

— التدريس بغير العربية تقليد وتبعية وتغيب للابتكار والإبداع وسعي إلى المجهول لأن الحضارة كما يقول مالك بن نبي تصنع ولا تستورد ولا تشتري بعملة أجنبية، واللغة أس من أسس الحضارة فهل يعقل أن نصنع

¹ - فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط2. ص276

² - الخصائص، ابن جني. - طبعة دار الكتب المصرية ص34

حضارة بغير لغتنا؟ فإذا كانت المعادلة التي وضعها مالك بن نبي الحضارة = إنسان + تراب + وقت والمعادلة التي وضعها أهل اللغة والأدب على لسان الشاعر

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم تبق إلا صورة اللحم والدم
لسان + فؤاد (عقل) = إنسان

والمعنى العميق لهذا الكلام أن لسان الفتى هو كل الفتى؛ لأن اللسان لا ينزع من فراغ، وإنما يستمد مادته من العقل المعبر عنه في البيت بالفؤاد، وبهذا المعنى جاء قولهم: "لسانك أنت

نجد الحضارة = اللسان + التراب + وقت

— هناك قاعدة اجتماعية متفق عليها تؤكد أن أي مشروع لا يكتب له النجاح مالم تكن له قاعدة ثقافية تحتضنه وتؤازره، فلا يتصور أن ينجح مشروع في مجتمع تستعمل فيه لغة غير اللغة الأم، كما هو حال الأمة العربية مع العلوم. فكيف يمكن أن نصل إلى حضارتنا بلغة غيرنا؟ (هناك تناقض وعدم انسجام مع الذات)

— إن التساهل والتفريط في اللغة بأي شكل يُعد تفريطاً في حق ديننا وقوميتنا ومقومات شخصيتنا العربية الإسلامية وكل تأخر عن الاهتمام باللغة — بان تصبح لغة التدريس — هو موت بطيء للأمة، وإذا لم يتضح أثره اليوم فسوف يتجلى في المستقبل، لأنه يعمق عاماً بعد عام بُعْدَ لغتنا عن التحرك العلمي والتقني وتطوراته، وسيطرة اللغة التي صاحبت نشأته ونموه، كما يعمق الفجوة بين اللغة العربية والأجيال شيئاً فشيئاً، وهذا ما يرجوه أعداء الإسلام وأعداء لغته، بل ربما أدى ذلك إلى تدني النظرة إلى اللغة العربية بين أبنائها جيلاً بعد جيل.

— إن تعليم العلوم بلغة البلاد يخلق فينا قوى جديدة ويدفعنا إلى الترجمة والتأليف ويرفع عنا أصر الكسل المخجل ويضطر ذلك النخبة من الخبراء والاساتذة إلى الترجمة والبحث والاجتهاد للخروج من عهود التخلف وسيفتح لنا أسواقاً جديدة هي من أشرف الأسواق حيث تصبح الأمة قبلة للعلم والتأليف ويقبل علينا طلبة العلم والباحثين فنصبح سوقاً علمية تصدر المعارف لغيرها بدل أن نكون أمة تابعة مستهلكة

— إن التعليم باللغة العربية وبخاصة في المراحل العليا، يتيح الاستفادة من جميع اللغات ذات العلاقة بالتطور العلمي العالمي، وليس الاقتصار على

لغة واحدة. ، والعكس صحيح، التعلم بلغة اجنبية يكون على حساب لغتنا، فتصبح وكأنها لغة غريبة عنا!

— التعليم بغير العربية يجعلنا نخسر الوقت ونخسر الاجيال ونبتعد اكثر عن التطور العلمي سنتأخر كثيرا ونشقى أكثر، لأننا نخلق لأنفسنا مشكلة نحن في غنى عنها، وسنجد أنفسنا مضطرين إلى أن نضاعف جهودنا ونزيد من وقتنا ونجهد أنفسنا، فنضطر إلى تعلم اللغة أولا (الإنجليزية أو الفرنسية) ثم نتعلم بعد ذلك العلوم التي كتبت بها

— التدريس بغير العربية يؤثر على اللغة الأم، ومعلوم تأثير اللغات على بعضها البعض، حيث يصبح الطبيب والمهندس ورجل الدولة والكاتب والكتاب يستعمل لغة اخرى سيؤثر ذلك سلبا في المجتمع، ويصعب حتى تعلم اللغة العربية لأنها أصبحت وكأنها لغة أجنبية لا نجدها إلا في المدرسة وفي المراحل الأولى

وهنا أستشهد بقصيدة حافظ إبراهيم الشاعر المصري المعروف في حديثه عن اللغة العربية التي تعبر خير تعبير عما نحن بصددده الآن في هذا المقام:

وَنَادَيْتُ قَوْمِي فَأَحْسَبْتُ
عَقِمْتُ قَلَمُ أَجْزَعُ لِقَوْلِ عُدَاتِي
رَجَالًا وَأَكْفَاءَ وَأَدَّتْ بَنَاتِي
وَمَا ضِيقُ عَنْ أَيِّ يَدٍ وَعِظَاتِ
وَتَنَسَّقُ أَسْمَاءُ لِمُخْتَرَعَاتِ
فَهَلْ سَأَلُوا الْعَوَاصِ عَنْ صَدَقَاتِي
وَمِنْكُمْ وَإِنْ عَزَّ الدَّوَاءُ أَسَاتِي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحِينَ وَقَاتِي
وَكَمْ عَزَّ أَقْوَامٌ يَعِزُّ لُغَاتِ
فِيَا لَيْتَكُمْ تَأْتُونَ بِالْكَلِمَاتِ
يُنَادِي بَوَادِي فِي رَبِيعِ حَيَاتِي
بِمَا تَحْتَهُ مِنْ عَثْرَةٍ وَشَنَاتِ
يَعِزُّ عَلَيْهَا أَنْ تَلِينَ قَنَاتِي
لَهُنَّ بِقَلْبٍ دَائِمٍ الْحَسَرَاتِ

رَجَعْتُ لِنَفْسِي فَأَتَّهَمْتُ حَصَاتِي
حَيَاتِي رَمَوْنِي بِعَقْمٍ فِي الشَّبَابِ وَلَيْتَنِي
وَلَدْتُ وَلَمْ أَلَمْ أَجِدْ لِعَرَائِيسِي
وَسِعْتُ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً
فَكَيْفَ أَضِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ
أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَاءِهِ الدُّرُّ كَامِنٌ
فِيَا وَبِحَكْمٍ أَبْلَى وَتَبْلَى مَحَاسِنِي
فَلَا تَكْلُونِي لِلزَّمَانِ فَأَتَنَسِّي
أَرَى لِرَجَالِ الْغَرْبِ عِزًّا وَمَنْعَةً
أَتُوا أَهْلَهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ تَقْتَنُّنَا
أُطْرِبُكُمْ مِنْ جَانِبِ الْغَرْبِ نَاعِبٌ
وَلَوْ تَزَجَّرُونَ الطَّيْرَ يَوْمًا عَلِمْتُمْ
سَقَى اللَّهُ فِي بَطْنِ الْجَزِيرَةِ أَعْظَمًا
حَقِظْنَ وَدَادِي فِي الْبَلَى وَحَفِظْتُهُ